الشيخ امحمد بن يوسف أطفيّش القُطب
حياته ورحلاته الحجازية

د. يحيى بن بهون حاج امحمد؛ أستاذ محاضر (أ)
مخبر التراث الثقافي والأدبي بالجنوب الجزائري
جامعة غرداية – الجزائر
yahiabenbouhoun@yahoo.fr

Abstract :

Sheikh Mahammad ibn Youssef Tfeyech's trips are among the most remarkable Algerian Hijazi trips, due to the scientific, cultural and social aspects that accompany them, and most particularly that the person of interest is a great scholar whose reputation preceded him for his contributions in most all scientific areas during this era…

He went twice on a pilgrimage; the first pilgrimage was about 1290 AH/1873 AD and the second in 1303 AH/1886 AD. He recorded the events of his second pilgrimage in a poem called “Hijazi Poem” in about 232 verses where he described the details of his sacred journey in exquisite poetry way that reflects a great deal of etiquette and taste which grants this poem an important literary and historical value.

However, in his first pilgrimage, he stayed for a whole year, attempting to teach and learn by some prominent scholars in the territory of “Hijaz”. Simultaneously, he hardly strived to project some of Maghreb knowledge to Hijazi scholars and learners through

establishing many scientific and intellectual activities either with scientific debates or through giving some religious lectures. During his journey, he also tried to establish a fraternal and scientific atmosphere with Mashreqi scholars by writing and exchanging many books and correspondences. During this pilgrimage he met with different significant scholars and thinkers while he contributed in organizing and sending different scientific missions towards and from Mashreq which consolidated the bonds of fraternity and complementarity between the two sides of Islamic World. Besides, he has done many scientific trips inside the Algerian territories as a reformer and educators for decades.

On the whole, Sheikh Tfeyech's trips have been regarded as examples of scientific and cultural communication between Muslims in Mashreq and Maghreb, while reflecting virtuous aspects of the scholars' ethics, as well as vivid images of Muslims lifestyle in this important historical period in the history of Algeria and the Islamic world. The local community of Sheikh Tfeyech has benefited a great deal from the experiences of this reverent scholar through his pilgrimages in addition to his scientific and educational trips while he enlightened the paths of his followers in both M'zab and its surroundings.

Keywords: Hijazi trips – Sheikh Tfeyech – cultural communication

مقدمة:

تعد رحلات الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيَّش الجزائري، (و: 1238هـ/1821م – ت: 1332هـ/1914م) من بين أجمل الرحلات الحجازية "الجزائرية" وأبدعها؛ نظراً للجوانب

العلمية والثقافية الكثيرة التي حفَّت بها، وبخاصة أنَّ صاحبها عالم موسوعي جليل أطبقت شهرته الآفاق وقد ألَّف في معظم فنون العلم في عصره.

حجَّ مرَّتين الأولى حوالي 1290هـ/1873م والثانية سنة 1303هـ/1886م، وقد سجّل أحداث رحلته الحجّيّة الثانية شعراً في "قصيدة حجازية" تقع في 232 بيتاً وصف فيها تفاصيل رحلته في مقصورة شعرية بديعة؛ تنمّ عن أدب جمٍّ وذوق رفيع...؛ وهو ما أكسبها قيمة أدبية وتاريخية مهمة.

أمَّا في رحلته الحجّية الأولى فقد مكث فيها مجاوراً بالحرمين عاماً كاملاً، وسجّل بعض تفاصيلها في ثنايا بعض تآليفه الكثيرة، وفي أجواء الحجاز الطيبة اغترف من معين العلماء الأعلام متعلّماً تارة، ومعلِّماً تارة أخرى فكان بحراً زاخراً في نقل النبوغ المغربي إلى الحجاز؛ وصنع خلال رحلاته تلك فضاءات مفعمة بالتواصل العلمي من خلال إقامة المناظرات العلمية وإلقاء الدروس الشرعية وكذا المراسلات المختلفة وتأليف الكتب وتبادلها إلى غير ذلك كثير... كما اجتمع بعديد العلماء والمفكرين، وأسهم بشكل فعال في تنظيم "البعثات العلمية" من المغرب إلى المشرق وبالعكس...، وهو ما زاد في إرساء ودعم أواصر المحبة والتآلف بين المذاهب الإسلامية مشرقاً ومغرباً...؛ ويضاف إلى ذلك رحلاته داخل القطر الجزائري مصلحاً ومربياً، طيلة عقود من الزمن.

وعلى العموم لقد ضربت رحلات الشيخ أطفيَّش أمثلة راقية في التواصل العلمي والثقافي بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وعكست جوانب فاضلة من أخلاق العلماء، كما نقلت لنا صوراً حية عن حياة المسلمين في تلك الحقبة التاريخية المهمة من تاريخ الجزائر والعالم الإسلامي، وبالنسبة لمجتمع الشيخ أطفيَّش المحلي فقد أفاد كثيراً من تجربة هذا العالم الجليل من خلال رحلاته الحجيّة والعلمية والتربوية وأنار السبل للمريدين في مزاب وما حوله.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الحجازية – الشيخ امحمد أطفيَّش – التواصل الثقافي.

القُطب أطفيَّش نسبه ومولده:

هو: امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل ابن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحَفصِي، أطفيَّش أشهر عالم إباضيٍّ بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة، من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، غرداية، الجزائر، من عشيرة آل بامحمد[1]، وينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاتي، من العائلة الحفصية الحاكمة بتونس بين (625-

983هـ/ 1229–1574م)، وفي بعض كتبه يُنهي القُطب نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب τ.

يقول عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في ملحق السير: "منهم الشيخ الحاج امحمد بن يوسف أطفيَّش الشهير بقُطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشارقة وهو جدير بحق بهذا اللقب العظيم، فإن علماء المشرق والمغرب كالكواكب تدور على هذا القطب في فلكه الواسع، ويتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب τ فهو من بني عدي"[2]، أمَّا لقب "قُطب الأئمة" فقد أطلقه عليه الشيخ عبد الله بن حميد السَّالمي[3] _مجدد العلم بعُمان_ فاشتهر به حتى صار علمًا عليه.

نشأته ووفاته:

ولد القُطب في مدينة غرداية لما انتقل إليها والده، سنة 1236هـ/ 1820م، وعاش بها طفولته الأولى، ويُعد والده الحاج يوسف من الشخصيات البارزة في وادي مزاب على ذلك العهد، وإن لم يسجل لنا التاريخ كُلَّ آثاره، أمَّا عن السبب المشهور لنفي والده إلى مدينة غرداية فيرجع إلى الخلافات التي كانت تنشب بينه وبين وجهاء بلدته يسجن حول إصلاح الأوضاع الاجتماعية[4].

إلاَّ أنَّ التَّنعُّم بظلِّ الوالد لم يدُم طويلاً للفتى امحمد، فقد توفي الأب والابن لم يتعد الرابعة من عُمُره، فتركه يتيمًا تحت كفالة والدته التي توسَّمت فيه بوادر النبوغ فرشَّحته بكل ما تملك لنيل العلم النافع رغم قسوة ظروف الحياة ومرارة العيش، هذه الأم الرؤوم هي: مَامَة سَتِّي بنت الحاج سعيد بن عدون بن يوسف بن قاسم بن عمر بن موسى بن يدَّر، من عائلة آل يدر ببني يسجن، وتعد هذه الأم الفاضلة بِحقٍّ من الأمهات المكافحات وقد بذلت كلَّ جهدها في سبيل تنشئة ابنها التنشئة الصالحة، وقديمًا قال الشاعر:

وَيَنشَأُ نَاشِئُ الفِتيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وَمَا دَانَ الفَتَى بِحِجًى وَلَكِن يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقرَبُوهُ[5]

ويقول عنها المؤرخ الأستاذ محمد علي دبوز: " لقد كان لوالدة القطب أعظم الجهد فيه بوراثتها الشريفة، فكانت هي السبب في اتجاه القطب إلى العلم بعد وفاة والده، فلولاها لاتجه اتجاهاً مادياً يُودِي بنبوغه كما أودت المادة والجهل بنبوغ كثير من اليتامى وأبناء الأمهات الجاهلات"[6].

فحينما بلغ محمد بن يوسف أطفيَّش الخامسة أدخلته أمه في كُتَّاب المسجد لحفظ القرآن، فسطع نجمه أمام أترابه، حيث لم تمر ثلاث سنوات حتى كان الفتى اليافع قد حفظ القرآن الكريم بكامله حفظاً جيداً عن ظهر قلبٍ وهو لم يبلغ بعدُ ثماني سنوات.

لقد فتح هذا النبوغ والذكاء الخارق مع الكفالة الطَّيبة الشَّهية للفتى امحمد، فسارع لحضور حِلقِ العلمِ في المسجد وفي بعض دور العلماء _مع قِلَّتهم على عهده_، فملأ منها بعض وِطَابِهِ إلاَّ أنها لم تشف غليله، إذ لم يأخذ منها الشيء الكثير بل انتهى إلى المبادئ فقط، فمن أخيه الأكبر إبراهيم بن يوسف[7] أخذ مبادئ النحو والفقه، وعن الشيخ سعيد بن يوسف وينتن[8] تلقى مبادئ المنطق، وكان يحضر حلقة الشيخ عمر بن سليمان نوح[9] مع أخيه إبراهيم، وحلقة الشيخ الحاج سليمان بن عيسى آل الشيخ[10] في دار التلاميذ اليسجنيين.

وقد كان لأخيه إبراهيم الأثر الكبير والفعال في تثقيف شخصية القُطب، ويمكننا أن نستدل على ذلك بما كتبه تلميذه أبو اليقظان، إذ قال: " لما رجع أخوه الشيخ الحاج إبراهيم من المشرق العربي من عُمان ومصر وهو مملوء بأوسع المدارك كما مر بيانه، إذ احتضنه تعليماً وتثقيفاً، فوجد منه بحراً زاخراً، عذباً يروي غلته من العلم والمعرفة، فأخذ حظه منه في سائر العلوم، ثم تفرغ للتدريس والتأليف، وصرف قوة شبابه فيهما إلى آخر عمره"[11].

وعلى ضوء هذا فإن أخاه الحاج إبراهيم، هو من كوَّن فيه الرغبة الخالصة في المعرفة مع التوجيه السليم، حيث درس عليه العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه، وعلوم القرآن والمنطق والتاريخ، ثم إن أخاه قد منح له كل كتبه التي جاء بها من المشرق العربي، فدرسها دراسة علمية وقرأها من دون أستاذ حتى تمكن فيها كل التمكن، وفقه مسائلها وأدرك أسرارها.

بعد ذلك شمر امحمد عن ساعد الجِد بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل، يدفعه في ذلك ذكاءه الحاد وذاكرته الوقَّادة مع رغبة في طلب العلم لا تعرفُ الحدود.

نشأ الشيخ أطفيَّش عصاميًّا مُعتمدًا على نفسه في طلب العلوم فلم يسافر لتحصيلها بل جعل دأبَهُ الحرص الشديد على اقتناء الكتب واستنساخها لنفسه، مجتهدًا في طلبها من كلِّ البُلدان، رغم ضيقِ ذات اليد وبُعدِ المسافات، وقد أقبل على المكتبات يلتهم كنوز المعرفة من بطونها، وساعدته في ذلك بعض الظروف فمن حسن حظه أن دعاه نجل الشيخ عبد العزيز الثميني وفتح له خزانة والده[12]، ثم وهبت له بعد ذلك زوجته الصالحة عائشة نوح[13] الخزانة التي

ورثتها عن أبيها الذي كان عالما، بهذا وجد القطب نفسه أمام عدد من خزائن الكتب، فلم تتق نفسه إلى الرحيل خارج الوطن طلبا للعلم مكتفيا بما حوله من الكنوز.

نبوغه:

لم يكد القُطب يبلغ السادسة عشرة من عُمره حتى جلس للتدريس والتأليف، ولمَّا بلغ العشرين صار عالم وادي مزاب، ثم في كهولته بلغ درجة الاجتهاد، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه شامل الأصل والفرع، ولا أدل على ذلك من نبوغه النحوي، بحيث استطاع أن ينظم كتاب المغني لابن هشام في خمسة آلاف (5000) بيتٍ وعمره لا يزيد على ستّ عشرة (16) سنة.

وفاته:

توفي القُطب _رحمه الله_ بعد عمر طويل قضَّاه في الطاعات، وقد شهد له جميع من عرفوه من العلماء الأعلام بالرسوخ في العلم، توفّي بمرضٍ دام أسبوعًا ولم يمرض من قبله بمرض معجزٍ، بعد أن قضى قرابة القرن في الجهاد العِلمِي والإصلاح الاجتماعي، عن عُمرٍ يناهز الستّ والتسعين سنة.

وتذكر بعض المصادر أنه كان من السبعة المقتولين بالسم سنة 1914م، إذ وضع له أحد العملاء الفرنسيين سُمًّا في حذاءه تسبب في وفاته بعد أسبوع[14]، وتوفي يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ/ مارس 1914م).

معهده:

أنشأ القُطب عام 1253هـ/1837م معهدًا للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى بلدة بنورة (آت بونور) ومكث بها حوالي عشر سنوات ألف فيها كتبا كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلدته خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في: 25 ديسمبر 1878م/1296هـ.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انبثُّوا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي، من ميزاب(الجزائر) وجزيرة جربة (تونس) وجبل نفوسة (ليبيا)، وعُمان، ومن أشهر الأجانب عن وطنه: سليمان باشا الباروني النفوسي[15]، وسعيد بن تعاريت الجربي[16].

ومنهم أيضًا: إبراهيم أبو اليقظان[17]، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش الجزائري[18]، وبابكر بن الحاج مسعود[19]، وصالح بن عمر لعلي[20]، وصالح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ[21]، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي[22]، والحاج ناصر بن إبراهيم الداغور، ويحي بن صالح باعمارة[23]، والحاج عمر بن يحيى[24]، ومحمد بن صالح بن يحي الثميني[25]، وإبراهيم بن بنوح مطياز[26]، وصالح بن الحاج محمد الداودي، وغيرهم..

منهجه في التدريس:

يعتمد منهج القطب في التدريس على استغلال الوقت والتركيز على التلقين، بحيث تستمرُّ دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال إلاَّ يوم الجمعة، ثم يزيد دروسًا في المساء بعد العصر.

لا يدرِّس القُطب في الليل إلاَّ الغُرباء والنجباء والمتفوقين، لأنه كان في العادة يخصص الليل للتأليف والإجابة عن الرسائل والاستفتاءات وغيرها، وكان مع ذلك متفانيًا في التعليم فقد تصل دروسه إلى أزيد من عشرة دروس مختلفة التخصصات في اليوم الواحد.

قد يستعمل القُطب اللسان البربري المحلي "اللهجة المِزابية" عند الاقتضاء، ولا يحاسب تلاميذه على الغياب أو الإبطاء، وإذا رأى منهم تعبًا روَّح عنهم بما يدفعهم إلى النشاط والتركيز، كما كان يولي اهتمامًا بالغًا لأسئلة تلاميذه فيكتبها ويحقق مسائلها، ولا يعجزه شيء عن الرجوع إلى المصادر المختلفة حتى أثناء الدرس.

لقد فتح منهج القُطب في التدريس الباب على مصراعيه لجحافل الطلبة الذين تهاطلوا عليه من كلِّ مكان طلبًا للعلم النافع، وأمام ضيق ذات اليد لم يستطع القطب استقبال كلّ من طلب الدراسة عنده[27]، ومع ذلك فقد تخرَّج على يديه معظم روَّاد الحركات الإصلاحية في مزاب وتونس وليبيا وعُمان كما أسلفت.

مكانته العلمية:

لقد سطع نجم القُطب مبكِّرًا في سماء مزاب والجزائر والعالم الإسلامي، وساهم بذكائه وحسِّه الإسلامي المرهف في تحسيس المسلمين بأهمية العلم وضرورته، وكذا بخطورة الاستعمار وسياسته في تجهيل الشعوب وجعلها تابعة له، فعرف المنصفون مكانته العلمية فقدَّروها حقَّ

قدرها، وتسارعوا إلى لقائه وإرسال وفود الطلبة إليه، حاملين معهم الهدايا والكتب القيمة من سادتهم ووجهائهم.

فقد أهدى إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نيشاناً عندما حل لغز الماء، في مسابقة وقعت بين معاصريه من العلماء، فقال رجال الأكاديمية الفرنسية: "نحن أحق وأولى من تركيا في تكريم العالم أطفيَّش..."، فأعطوه وسام الاستحقاق: "السعفة الذهبية" (la palme académique).

وقد كانت للقطب مع سعة مداركه مراسلات إلى أبعد الآفاق الإسلامية، فله رسائل مع سلطان زنجبار "برغش" الذي كان يدفع له منحة شهرية ويشارك في حركة النهضة بطبع المؤلفات الإباضية، كما كانت له مراسلات كثيرة مع أعلام الفكر الإسلامي لاسيما أهل عُمان إذ تلقى سنة 1298هـ/1881م نسخة من "بيان الشَّرع" لمحمد بن إبراهيم الكِندي العُماني، وهذه الموسوعة تحتوي على 71 مجلداً، وأخرى من "قاموس الشريعة" لجميل بن خميس السعدي التي تحتوي على 92 مجلداً.

ومن هنا فإنَّ جلَّ العلماء الذين عرفوه قد شهدوا له بالتفقه والاجتهاد، وهذا الأخير قد ظهر جليًّا في شرحه لمتن كتاب النيل للعلامة عبد العزيز الثميني، وعلى أية حال فإن كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" يعد موسوعة فقهية، فالقطب _رحمه الله_ قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الإسلامية جلها، هذا وإن القطب لا يأخذ الآراء الفقهية إلا بعد نقدها وغربلتها حتى يحكم لها أو عليها ولو كان هذا الرأي من مذهبه.

إن شرح كتاب النيل يوازي الأمهات الفقهية الكبرى، بحيث أعطى دفعةً جديدة للمذهب الإباضي خاصة، والفقه الإسلامي في عصرنا هذا، ومن هنا قيل إن شرح النيل وشفاء العليل، هو موسوعة فقهية كبرى تقف جنباً إلى جنب مع الموسوعات المذهبية الأخرى الذي تتجه إليها أنظار العلماء والباحثين من جميع البلدان.

مؤلفاته:

لقد بلغ عدد مؤلفات القُطب أكثر من مئة مؤلف في شتى العلوم: الأخلاق، والأصول، والبلاغة، والتفسير، والتجويد، والتوحيد، والتاريخ، والحديث، والحساب، والرسم، والسير، والطب، والصرف، والفقه، والعروض، والفلك، والفلاحة، والفرائض، والفلسفة، واللغة،

ومصطلح الحديث، والمنطق، والنحو، والمراسلات المختلفة.. ولعلي أذكر هنا أهم وأبرز مؤلفاته:

أ – علم التفسير:

– هيمان الزاد إلى دار المعاد، مط، ويقع في 13 مجلدًا.

– داعي العمل ليوم الأمل، مخ.

– تيسير التفسير، مط، يقع في 13 جزءًا.

ب – التجويد:

– تلقين التالي لآيات المُتعالي، مخ.

– جامع حرف ورش، مط.

ج – الحديث والسيرة:

– ترتيب الترتيب، إعادة ترتيب مسند الربيع بن حبيب τ، مط، طح.

– وفاء الضمانة بأداء الأمانة، مط.

– جامع الشمل في حديث خير الرسل ρ، مط.

– السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، مخ.

– الغسول من أسماء الرسول، مط، طح.

– رسائل الصلاة على النبي ρ، مخ.

– شرح نونية المديح، مخ.

د – الفقه وأصوله: وهو أوسع مجالات تأليفه.

– فتح الله: شرح شرح مختصر العدل والإنصاف، مخ، في 12 مجلدا.

– جامع الوضع والحاشية، مط. طح.

– شامل الأصل والفرع، مط. طح.

– شرح كتاب النيل وشفاء العليل، مط. طح.

– إطالة الأجور وإزالة الفُجور، مط.

– الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مط.

– حكم الدخان والسعوط، مط.

– حي على الفلاح (وهي حاشية على كتاب الإيضاح)، مخ.

– القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية، مط. طح.
– أساس الطاعات لجميع العبادات، مط.
– كتاب التحفة والتوأم في الفرائض، مط، طح.
– شرح كتاب الزكاة، مخ.

هـ – التوحيد وعلم الكلام والفلسفة:

– شرح عقيدة التوحيد، مط، طح.
– الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد، مط، طح.
– فتح الباب للطلاب، شرح معالم الدين، مخ.
– إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، مط، طح.
– الجنة في وصف الجنة، مط، طح.
– الرد على الصفرية والأزارقة، مط، طح.

و – اللغة العربية وعلومها:

– نظم متن مُغني اللبيب، في 5000 بيت، مخ، نظمه وهو ابن 16 سنة.
– بيان البيان في علم البيان، مخ.
– إيضاح الدليل إلى علم الخليل، مخ.
– ربيع البديع في علم البديع، مخ.
– تخليص العاني من ربقة جهل المثاني، مخ.
– كتاب الرسم في تعليم الخط، مط، طح.

ز – التاريخ:

– رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب، مخ.
– الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل ميزاب، مط، طح.
– مسائل السير، مط، طح.
– كشف الغمة، مط، طح.
– الإمكان في ما جاز أن يكون أو كان، مط، طح.

حـ – الفلك والحساب:

– مسلك الفلك، مخ.

– شرح القلصادي، مخ.

ط – تآليف مختلفة:

– تحفة الحب في أصل الطب، مط.

– النحلة في غرس النخلة، مط.

– شرح لغز الماء، مط.

– أجور الشهور على مرور الدهور، مط.

– الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، مط، طح.

أخلاقه وجهاده التربوي:

إن الدعوة الإسلامية التي طالما دعا إليها الشيخ أطفيَّش تعود إلى إيمانه القوي بنور الإسلام، ففضيلة التقوى هي أصل مكارم الأخلاق كونها نابعة من طهارة القلب الذي لا يرائي الناس، ولا تفتر إرادته المخلصة أمام الحواجز التي يتلقاها، قال الرسول الكريم ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك". أخرجه أحمد والترمذي، ويقول الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مُسلمون" آل عمران 102.

كان القطب رحمه الله يخاف ربه ويرجوه في كل شيء في قوله وعمله ودعوته الإصلاحية التي رفع لواءها، وهكذا نجد تلميذه أبا اليقظان يصف لنا شمائله الأخلاقية قائلاً : "كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، شفوقاً على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفاً على الملهوف، يفكر تفكيراً إنسانياً في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، عاملاً بمقتضى الأثر كل من قال وآمن بحق الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو أخي في الإسلام، تلزمني نحوه حقوق كثيرة، أولها النصح في الله، يقول الله تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ" (التوبة، 71) "[28].

أمَّا الجوانب الأخرى من شخصية القطب المتمثلة في المعرفة العلمية الصحيحة، بحيث إنه أدرك البعد العميق للعلم الصحيح ما دام يسعى إلى سعادة الدنيا والآخرة، يقول _رحمه الله_ الورع بالعلم هو عماد الدين وهو الكف عما يوجب النار، إذن فالعلم الصحيح عنده يجب أن يكون مبنياً على التقوى وإخلاص النية لله عز وجل خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة تدريساً وتأليفاً وسلوكاً، وهذا لن يكون إلا لمن التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية العالية وحارب الجهل

مهما كانت طبيعته، وهو الأمر الذي لا يحصل إلا لمن اكتسب أمهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية.

بالرغم من الحواجز المادية والطبيعية والبشرية التي تقف أمامه آنذاك استطاع تكوين مكتبة هامة وثرية بنفائس المخطوطات، يقول عنها الأستاذ محمد علي دبوز: "وكانت مكتبته تحتوي على آلاف من نفائس الكتب، لقد استطاع بجده وعزيمته الفولاذية وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعيين اليوم"، إن امتلاك هذه المكتبة العظيمة من القطب رحمه الله لهي دليل كبير على شغفه بالعلم وخدمته، لأن هذا العلم الصحيح لا يقل عن الجهاد بالنفس، ولنتأمل هذا الحديث الشريف: (عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد قال: رسم المداد في ثوب أحدكم إذا كان يكتب به علما كالدم في سبيل الله، ولا يزال ينال به الأجر مادام ذلك المداد في ثوبه) – جامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب–.

بناء على هذا الحديث الشريف نقول: إن القطب رحمه الله قد شمر عن ساعده، فجد كل الجد في البناء التربوي حيث تمكن من إنشاء معهد إسلامي في مدينة بني يزڤن محاولاً بذلك إصلاح المجتمع وتربيته تربية إسلامية تقوم على أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، والجدير بالملاحظة أيضا هو أن القطب _رحمه الله_ قد شخص تلك الأخلاق الإسلامية في سلوكه وسلوك طلابه الذين عاشوا الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكاً، وسخروا كل طاقاتهم الفكرية والمادية لإعلاء بناء الإسلام، وهكذا فإن الطلبة الذين تخرجوا من معهد الشيخ أطفيَّش حملوا مشعل النهضة الحديثة في العالم الإسلامي.

جهاده الاجتماعي:

إن القطب _رحمه الله_ قد سلك نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، إلا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي ليس بالأمر الهين، نظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهارا، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بين ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلا: (فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلا لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي..) [29].

لاشك أن المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلاَّ أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

من هنا يتبين لنا من خلال استعراض المسار التاريخي للأحداث التي واكب القُطب أطفيَّش معظمها، أن هذا الأخير قد خاض معركة الكفاح الاجتماعي لعدة سنوات مبيناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا كل مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي، داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجابهًا في جهاده الاجتماعي مختلف الأعداء حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن سخَّرهم هذا الأخير لمجابهة القُطب في جهاده الإصلاحي.

محاربته للاستعمار الفرنسي:

إن الشيخ أطفيَّش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند وصولها إلى وادي مزاب، وكان يدعو إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وتجارياً، وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "دولاتور" قد سجنه في نوفمبر 1882م مباشرة بعد وصوله إلى وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليُقنع العزَّابة (رجال الدين في ميزاب) بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم لإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازمًا أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، مردّداً هذه العبارة الأخيرة في كلِّ مرة معتزًّا بالإسلام أيما اعتزاز.

ومن طريف ما يروى عن القُطب أن وفداً فرنسيًّا زاره في الدار التي يدرس فيها وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حله لُغز الماء الذي حيَّر العلماء، وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالساً يدرّس طلاَّبه، ولما وقفوا أمامه قام القُطب واعتلى بعض الدّرج، فطلب منه الحاكم أن ينزل ليسلمه رئيس الوفد النَّيشان، فأجابه القُطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه"، وعندما دنا منه أحد الجنود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القُطب طرف بُرنُسِهِ من الأسفل وقال له علِّقه هنا...

وكان يستدعى مرَّات إلى التحقيق بسبب تجرؤه المستمر على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حتى إنه فُتِّش وسُئل مرَّات عن وضعه الطابع البريدي مقلوباً إلى الأسفل

على الأظرفة البريدية، وقد يبدوا للبعض بأن هذا السلوك الأخير تصرف ساذج، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال وجود المستعمر.

رحلاته وأسفاره:

لما ذاع صيتُ القُطب تهافت الطلبة عليه من كل مكان، وطلب الملوك والأمراء لقائه كذلك، فأرسل له الكثير منهم يطلبون تشريفه بزيارة بلدانهم.

إلاَّ أنَّ اشتغاله المستمر والمتواصل بالتربية والتعليم أخذا جُلَّ وقته، فاستعاض عن الرحلات إلى الأمصار البعيدة بالمراسلات المختلفة إلى أولئك الملوك والوجهاء والأعيان، فمن خارج الجزائر راسل شخصيات من البحرين والحجاز، وعُمان ومصر وتونس وجبل نفوسة، والقُسطنطينية وبعض العواصم الأوربية، ولو جمعت تلك المراسلات لكونت مجلدات ضخمة فيها من أنواع المعارف والأخبار التاريخية فوائد كثيرة مهمة.

مع ذلك فهو يزور مدن وادي مزاب باستمرار لإلقاء الدروس والفتوى، مثل عادة زيارته لمدينة بريان التي غالباً ما تكون مرَّتين في السنة في الربيع والخريف، لإلقاء الدروس والوعظ والإفتاء،.. كما زار مدينة القرارة مراراً.

وقد زار القطب وارجلان (ورقلة) سنة 1320هـ/ 1902م، فتلقاه أهلها من خارج المدينة بطلقات البارود احتفاءً بوصوله إليهم، ومكث بها أسبوعين[30].

ويعود سبب قلة رحلات القُطب كما أسلفت إلى أوضاعه الشخصية، كاشتغاله منذ سنٍّ مبكرة بالتدريس الذي تطور من حلقات إلى طبقات، وما يتطلبه ذلك من التفرُّغ والتحضير الجيِّد، أضف إلى ذلك سياسة التضييق الممارسة عليه من طرف المستعمر الفرنسي وأذنابه والتي عانى من ويلاتها القُطب وطلبته الكثير، ولعل من أحقرها إجبارية طلب رخص التنقل بين قرى مزاب وخارجها.

رحلاته الحجازية:

تُجمع كل المصادر التي بين أيدينا اليوم على أن القُطب أطفيَّش قد حجَّ مرَّتين في حياته أمَّا الأولى، فقد كانت حوالي سنة 1290هـ/1873م وهي التي يتردد ذكرها كثيراً في مؤلفاته، وقد مكث في مكة مُجاوراً[31] سنة كاملة، درَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السُّنوسية في عقائد المالكية"، وإن كان شرح هذا الكتاب من طرف القُطب لم يصل إلينا بعد[32]، ثم دَوَّنَ في تلك الرحلة معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألَّف فيها كتابه الشهير في

المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"[33]، وقد كتب القُطب على وجه الورقة الأولى ما يأتي: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق، ألَّفتُهُ في مكة، ولعلماء مكة تطاولٌ إليه، وذلك في عهد الشيوخ الشافعيين دَحلاَن ومحمد حَسِبيَ الله ورَحمَة[34]، والشيوخ الحنفيين عجماً وعرباً، فمن العجم التركيين الشيخ محمد حقي بن علي بن إبراهيم[35] مؤلف "حزب الأبرار وحصن الأخيار" وغير ذلك، وكلهم محبُّون لي ولأموري"، وقد أرسل القُطب نسخة بخط يده من هذا الكتاب إلى ملك زنجبار الشيخ سعيد بن علي الصقري، وذلك بعد عودته من الحج ليقوم بطبعه على نفقته الخاصة، وهو ما ورد في عبارة صغيرة على جانب الورقة الأولى نفسها بخط القُطب نفسه وهي: "إلى الشيخ سعيد بن علي الصقري يطبعه ويردّه إلى مؤلفه امحمد بن الحاج يوسف مع نُسخة من مطبعة، لأنه لمَّا يُنسخ".

أما رحلته الحجازية الثانية فقد كانت سنة 1303هـ/1886م وقد كتب فيها "قصيدته الحجازية" وذكر فيها مسلك رحلته تلك إلى الحجاز ذهاباً وإياباً، وأهم المدن التي نزل بها، والناس الذين اجتمع بهم في كلِّ مرحلة، وقد عاد منها مع بداية سنة 1304هـ.

وفيما يخصّ تاريخ الرحلة الحجازية الأولى _نقلاً من ثنايا بعض مؤلفاته_ من ذلك قوله: "... وكتابة العلوم بالقالب[36] فإنه أحدثت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف (1138هـ) فتشاور علماء اسطنبول بينهم مراراً واتفقت آرائهم على جوازها، وأفتى به قاضي القضاة عبد الله أفندي وأراده السلطان أحمد الغازي، ذكره الشيخ محمد حقِّي بن علي بن إبراهيم التركي الحنفي في "منبع الحقائق" والتقيت معه في مكة عام ألف ومائتين وتسعين تقريباً (1290هـ/1873م) وكان يُحبني ويقبّل يديّ في المسجد الحرام بحضرة الناس، حتى قام عليه الناس ونبَّهوه أنني لست من الأشعرية، فترك ذلك خوفاً منهم مع بقاء رغبته فِيَّ..."[37].

ويقول عنها أيضاً في جوابه للعُقبي والشهير بـ"إن لم تعرف الإباضية": "... وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم الشيخ إبراهيم حقِّي العالم التُّركي المؤلف إذ خدمني في المسجد الحرام حتى حسدني أهل مكة، وقد عرف أنِّي إبَاضِيٌّ وطلب أن أعطيه حكمة في علم الجدول..."[38].

إلى أن يصل إلى القول: "... وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم دَحلاَن وحَسِبي الله الشَّافِعَيان، الحاضر أحدهما في إقرائي في المسجد الحرام تأليف السنوسي في التوحيد بحواشيه

وأبحاثه وشروحه لجماعة في أُبَّهةٍ عظيمة من أهل عُمان ومُضاب وأهل الجبل جبل نفوسة من أعمال طرابلس الغرب..." [39].

ويقول في كتاب تعليم الرَّسم: "...أمَّا المصاحف الكبار فلا تغير عن الإمام وهي كتب كبار بخط غليظ جدا متفاسح السطور والحروف، لا تحتمل الحمل إلى المحاضر والكتّاب، تُجعل على محامل؛ وقد شاهدتها في المُدن الكبار بتلك الصفة ككتب السلطان في مصر، وفي وكالة الجاموس للإباضية قرب مسجد ابن طولون في مصر جزء منها، ولم يكن في رواقهم الذي في الجامع الأزهر وهو رواق لهم عند رواق المالكية في الجامع الأزهر قريباً من رواق السعد التفتازاني وهو مالكي لا شافعي، ولذلك تراه يشرح كتب المالكية ويُحشِّي عليها كما حشَّى على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه..."[40]

وقد وقفت بعد ذلك على وثيقة تاريخية مهمَّة وشهادة من أحد سراة المدينة المنورة، وهو السيد أحمد بن الشيخ حمزة الرِّفاعِي إمام المدينة نقلها عن والده مباشرة لبعض إخواننا المزابيين من الحُجّاج عندما زاروا المدينة المنورة وأرادوا الإطلاع على المزيد من أخبار رحلة القُطب أطفيَّش حينما زار البقاع المقدسة والتقى بعلماء الحجاز، فقلت لابد من نقلها للأمانة التاريخية ليحصل بعض الفائدة العلمية لمن أراد الإطلاع عليها، وليطمئن الشَّاك ويتحقق من صحة المعلومات التي ذكرها القُطب عن إكرام أهل الحجاز له.

يقول كاتب الرسالة أحمد بن حمزة الرِّفاعي:

1/"..وبعد، لقد طلب مني بعض الأفاضل الإباضية أن أكتب لهم نبذة عن زيارة العلاَّمة الجليل الإمام الحاج الشيخ محمد بن يوسف الطفيَّش[41] الإباضي المزابي الجزائري حينما قدِم إلى المدينة المنورة سنة 1298هـ _على ما أذكر_ لزيارة قبر النبي ρ، فلبَّيتُ طلبهم بما سمعته من والدي المرحوم الشيخ حمزة الرفاعي المديني وطناً الشافعي مذهباً، الذي ترجم عنه في رحلته الحجازية المطبوعة سنة 1333هـ فضيلة العلم يدَّر الحاج أحمد[42] قاضي الإباضية في بلاد معسكر إيالة الجزائر عمالة وهران _رحمه الله_.

تبيين للحقيقة

2/ هو أنه كان في عهد الدولة العثمانية من مئات السنين تعيينُ أدلاَّء لوفود حُجاج ضيوف الرحمن للقيام بمصالحهم وراحتهم وصيانتهم وزيارتهم لتلك المآثر الشريفة مدة إقامتهم

وترحالهم؛ يوجد وجرى ذلك في عهد الحكومة الهاشمية وكذا جرى ذلك في عهد حكومة الدولة العربية السعودية _حفظها الله وأيدها_.

3/ وقد كان نصيب السيد أحمد السَّمهُودي المدني _رحمه الله_ دلاّلة القطر الجزائري وسائر أعماله دليلاً رسميًّا بموجب تقرير خطي صادر من وُلاة الأمر في ذلك الحين، وبعد وفاة السيد أحمد السَّمهُودي المذكور آل تقرير الجزائر رسميًّا إرثاً لبناته لأنه لم يُعقِّب ولداً ذكراً له.

لذا كنَّ بنات المتوفى المذكور يوكلن أحد أقاربهن للقيام بزيارة الحجاج الجزائريين وسائر أعماله حسب المعتاد والجاري به العمل قديماً وحديثاً.

فبعد وفاة بنات السيد أحمد السَّمهُودي انحصر إرثه في أحد بناته وهي الشريفة فاطمة جدتي، والدة والدي المرحوم الشيخ حمزة الرِّفاعي السالف الذكر الذي يتَّصل نسبها بالعلامة الجليل مؤرخ المدينة المنورة نور الدين علي بن أحمد السَّمهُودي مؤلف كتاب: "وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى" ومؤلف كتاب: "خلاصة الوفاء في أخبار قبر المصطفى ρ" المتوفى سنة 911هـ المدفون في بقيع الغرقد بالمدينة المنورة _رحمه الله_، ثم آلت دلالة القطر الجزائري إرثاً رسميًّا لوالدي الراحل الشيخ حمزة الرفاعي المدني، ثم بعد وفاته آلت دلالة القطر الجزائري لورثته أولاده بموجب تقرير خطي رسمي من ولاة الأمر الذي لعبد الله أحدهم ومنهم أحمد بن حمزة الرفاعي المدني موطناً الشافعي مذهباً وإخوته الموجودين اليوم في قيد الحياة بالمدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة وأتم السلام.

<u>احترام وتقدير</u>

4/ قد كان العلامة الجليل الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطفيَّش _رحمه الله_ مدَّة إقامته نزيلاً ضيفاً عزيزاً مُحاطاً بحفاوةٍ وإكرامٍ ومن معه من الطلبة لدى والدِي الراحل في دارنا بباب المجيدي لقربها من المسجد النبوي الشريف الذي كانت قديماً نُزلاً لجميع حُجَّاج الإباضية من ميزاب، وذلك قبل أن تكون لهم دارُ وقفٍ لسكناهم بالمدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة وأتم السلام.

* ملحوظة *

قد طلب الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطفيَّش من والدي أن يُلقي درساً تبرّكاً من تفسير القرآن العظيم في المسجد النبوي الشريف؛ وبما أن القاعدة الجارية المتبعة في عهد حكومة الدولة

العثمانية هو أنه لا يسوغ لأيّ عالمٍ يَقدُم من الخارج أن يلقي درساً في المسجد النبوي الشريف إلاَّ بعد صدور الإذن له من مُفتي المدينة المنورة حينذاك.

فذهب والدي منفرداً لفضيلة مُفتي المدينة المنورة العلامة الجليل الشيخ محمد بالي المدني الحنفي _رحمه الله_ لطلب الإذن لضيفه الشيخ محمد بن يوسف الطفيَّش السالف الذكر، فكان سؤال الشيخ المفتي لوالدي ما هو مذهب ضيفكم؟ فكان جواب والدي: مذهبه إباضي، فأجاب الشيخ المفتي لوالدي: لا يسوغ لأيّ عالم يأتي من الخارج مذهبه خارجاً عن المذاهب الأربعة أن يدرِّس في المسجد النبوي الشريف كما هو الجاري والمعتاد.

فأجاب والدي _رحمه الله_ للشيخ المفتي: عندي ملحوظة وهي إذا استحسن نظر فضيلتكم عيّنوا خلف درسه عُلماء، فإذا ظهر منه في درسه ما يخالف الكتاب والسنة، يَمنعوه حالاً، فوافق المفتي على طلب والدي وأذِنَ للشيخ الطفيَّش المذكور بالتدريس في المسجد النبوي الشريف، فابتدأ الشيخ الطفيَّش بتفسير آخر سورة البقرة الشريفة، "لله ما في السماوات والأرض" إلى آخر السورة فابتدأ ساعة واحدة في اليوم الأول وساعة واحدة في اليوم الثاني وساعة واحدة في اليوم الثالث وختمها بالدعاء للإسلام والمسلمين، ولم يعترض عليه أحد من العلماء لمنعه، وكان موضوع درسه بالقرب من الموضع الذي يصعد إليه المؤذن ليبلغ إقامة الصلاة للمسلمين".

هذا ما سمعته من والدي _رحمه الله_ يقول محرره: ما أسعدها من رحلة من حرم إلى حرم، بقلم أحمد بن حمزة الرّفاعي المدني وطناً الشافعي مذهباً، خادم خدام الحرم النبوي الشريف ومنيره _عفى الله عنه_"[43].

هذا عن الرحلة الأولى، أمَّا الثانية فقد كثر الحديث عنها وتضارب بعضه، خاصة فيما يتعلق بالأسباب الداعية إليها والوفد المرافق له وتفاصيل الرحلة وغيرها...، ذلك لأنَّ القُطب _رحمه الله_ لم يفصل كثيراً في قصيدته ولم يترك آثاراً نثرية تدل عليها مثلما فعل في الأولى، ولعلها ضاعت مع عوادي الزمن، إلاَّ أنَّ هناك من الملاحظات ما ورد في ثنايا قصيدته الحجازية المتطاولة، وهو ما يمكن أن نعلق عليه فنتثبت بذلك صحته.

ظروف الرحلة:

تذكر المصادر الشفوية المعتمدة أنَّ من بين بواعث رحلة القطب الثانية إلى الحجاز هو: تصحيحه للمفهوم الخاطئ الذي ساد مزاب ردحاً من الزمن، والذي كان يقضي بعدم

السماح للمرأة بالسفر خارج مزاب إلاَّ لضرورة قُصوى مُلحّة كالعلاج مثلاً، أمَّا ما سوى ذلك فلا، وقد أُسقِطَ بسبب ذلك الركن الخامس في الإسلام وهو الحج، طيلة عقود من الزمن.

وللإشارة فإنَّ هذه الظاهرة لم تكن بعيدة عن زمن القُطب فقد ذكر قبله بعقود قليلة الشيخ إبراهيم بن بِحمَان الثميني اليَسجني[44] هذه الظاهرة التي عرفها عصره بميزاب وما حوله، وقد أرجعها إلى تشبُّث الناس بعَرَضِ الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني عندهم، فاضحاً تحجُّجَهم وتستُّرهُم بانعدام الأمن في الطريق، قائلاً: "...هذا وإنَّ الناس قد استخفوا بحق الله في الحجِّ في هذا الزمان، فصار عندهم كأنه تطوعٌ وفضيلة، وأسقطوا فرضه وطرحوه بزاوية الهجران، وتقوَّلوا فيه بعض الأقاويل الكاذبة، وتعلَّلوا بالعلل الواهية الساقطة، فقالوا: إنَّ طُرقه مشحونة بالآفات، مسدودة بالمخافات من كلِّ الجهات، أولاَ ينظرون إلى الناس في كل عام يرجعون من زيارة البيت والمقام سالمين الأجساد والأبدان، في كل سبيلٍ وبلدٍ من طوائف الدهر ونوائب الزمان؟! ... فلو قيل لهؤلاء إنكم قد ورثتم بمكة أو أقصى بلدٍ منها مثلاً ألف درهمٍ أو مائة دينار، لقطعوا إليها سَهل المفاوز وَوَعرَها آناء الليل وأطراف النهار، وخلعوا عن أنفسهم حينئذ ثياب العجز والكسل، وأسرعوا إليها المشي حُفاة الرؤوس والأرجل، وبلغوا إليها فرحين بلا مهملة وتوانٍ مستبشرين..."[45].

لعل القارئ يستدل من كلام الشيخ ابن بِحمان على أنَّ الناس بالفعل قد استخفوا بفريضة الحج بسبب الجهل ونقص الوازع الديني، وهو ما بقي عالقاً في اعتقادات الناس إلى زمن القُطب أطفيَّش، إلاَّ أنني لا أستبعد أيضاً العامل الأمني فهو أحد الأسباب الفعلية المباشرة والقوية لتراجع قوافل الحُجاج إلى بيت الله الحرام طيلة عقود من الزمن، إذ كانت بالفعل وفود الحجاج إلى الحجاز تعقد قبل انطلاقها في الرحلة أحلافاً وتجمع إليها ما أمكنها من القبائل في قوافل كبيرة يردُّون بها وحشية اللصوص والمغيرين الذين لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، والذين لا يتورعون عن إزهاق الأرواح في سبيل سرقة كلِّ ما خَفَّ وَغَلَى من متاع الحجاج المسافرين.

اصطحب القُطب أطفيَّش في رحلته هذه معظم تلاميذه النجباء المخلصين، كما أخذ معه زَوجَهُ مريامة فرطاس[46]، بعد أن استعان ببعض فَادِيهِ ممن هيَّأ له بغلاً يحمل هودج زوجِهِ، ولعل من أبرز أنصاره وأقربهم إليه في هذه الرحلة الشيخ عمر بن حمو بكلي العطفي وفي رواية رفقة والده الشيخ حمو بن باحمد بكلي العطفي، غير أني لم أجد ما يثبت ذلك، وقد تكفَّلوا بتوفير معظم أسباب الراحة والطمأنينة في تلك الرحلة ومنها الزّاد والسلاح والحماية...،

غير أن "ساعد القُطب الأيمن" وهو الشيخ عمر بن حمو بكلي كما جاء ذكره ومدح خصاله في بداية القصيدة الحجازية[47]، قد كان له دور أساسي وفعّال في نجاح هذه الرحلة الطويلة والشاقة، ولا شك أنَّ سبب اعتماد القُطب على هذا الرجل هو ما يتمتَّع به هذا الأخير من ذكاء وحصافة في الرأي مع البسالة والإقدام التي ورثها عن أبيه البطل الشيخ حمو بن باحمد.

ولا أدري إن كان مع الوفد المرافق للقُطب أناسٌ كثيرون من بني يسجن، إلاَّ أن يكون قد اختار لموعد رحلته أقربهم إليه وأوثقهم صلة به، لأنّ الكثير من المعارضين لهذه الرحلة هم من أهل بلدته، وقد وقفوا له بالمرصاد خاصة في مسألة سفر حرمه معه خارج مزاب، حتى قيل إنَّ هناك من استعد لإيقافه ومنعه من أخذ زوجه معه، حتى وإن اضطر في ذلك إلى استعمال قوة السلاح[48].

ضَرَب القُطب لمرافقيه موعدًا هو ضحى يوم الخميس للخروج من يسجن ثم من مُزاب، وقد اختار وقت الضحى لاشتغال الناس بأعمالهم وبساتينهم، كما هي طبيعة أهل بلدته فمعظمهم يشتغلون بالفلاحة في بساتينهم الموجودة في الجهة الغربية من البلدة، في حين أن باب الخروج إلى الشمال يقع في الجهة الشرقية منها، وبهذا انشغل عنه معارضوه عند انصرافه من بلدته، وتلقّاه أصحابه مع زوجه خارج سور بني يسجن فحملوها في هودج على بغلٍ كانوا قد أعدّوه لذلك، وقد جاء ذكر صاحب الهودج والبغل في آخر القصيدة الحجازية وهو السيد عيسى بن صالح[49]، كما دعا له الشيخ بالخير والبركة.

انطلق الركب في سِرّية تامة وتحت حراسةٍ مشدّدةٍ من مُرافقي القُطب باتجاه بلدة بريان التي تبعد عن مزاب بـ40كم إلى الشمال، ونجحت بذلك الخطة المُسطرة، وحُجِبَ القُطب _بحفظ الله_ عن عيون حرّاس أسوار المدينة ومن كلّ من يكيد له العَداء، ليصل إلى بريان في صباح يوم الجمعة.

وعن اسم بريان يقول القُطب في حجازيته: "ريَّان هو اسم لحافرها أضيف له البئر، أو معناه برٌّ قد ارتَوى بوصف وموصوفٍ..." [50]، ومن هنا ينطلق القُطب في بيان وشرح أصل تسمية كل مدينة ينزل بها بداية من بريان، ويفعل ذلك في كامل القصيدة الحجازية.

لم يكد يوم الخميس ينتهي ببلدة يسجن حتى كان خبر سفر القُطب مع زوجه إلى الحجّ قد بلغ أقاصي المدينة، فسارع المعارضون إلى جمع شتاتهم من أجل اللحاق بركب المسافرين قبل ابتعادهم أكثر؛ وفي تلك الأثناء كان القُطب ومرافقوه ينعمون بالراحة التامة استعداداً

لمواصلة الرحلة في تلك الليلة، وهم متيقّنون من أنَّ المناوئين لاشك سيلحقون بهم، وفعلاً صار الأمر كذلك ووقع المحذور، حيث وصلت إلى بريان مساء الجمعة جماعة من الخيَّالة تطلب لقاء القُطب وتُلحُّ في الطلب.

استسمحهم وجهاء القوم ورئيس البلدة قائلين: بأنّ القُطب ضيف بريَّان وهو متعبٌ الآن وسيرى في أمرهم في صباح اليوم الموالي، وفي رواية أخرى قيل لهم: بأنّ القُطب جالس يُفتي لأهل بريان في مسائل قدَّموها إليه، ولن يستقبل أحداً من غير سكان بريان حتى يأتوا بجميع ما عندهم من المسائل؛ وقد جرت العادة أن يسافر القُطب إلى بريان مرتين في السنة من أجل إلقاء الدروس والإفتاء، ومن ثمَّ فإنّ حظ أهلها من نصيب الشيخ قد حضر ولن يشاركهم فيه أحد من أهالي ميزاب، فاقتنع الخيالة بذلك وجلسوا ينتظرون طلوع الشمس.

في تلك الأثناء كان القُطب ومن معه قد جددوا الرحلة إلى الشمال بعد أن حضَّر لهم أعيان البلدة الزاد والدليل الذي يفتح لهم الطريق باتجاه مدينة الأغواط التي وصلوها بعد مسيرة يوم وليلة.

مرَّ يومان على انتظار الخيَّالة القادمين من ميزاب لدورِهِم في مقابلة القُطب، حتى جاءهم الخبر بأن القُطب قد جدد الرحلة منذ يومين وهو الآن على مشارف مدينة الجلفة التي تبعد عن بريان بحوالي 270كم إلى الشمال، عندئذ سُقط في أيدي أولئك الخيالة ما دبَّروا وخطَّطوا، ولما علموا بأنه قد أحيط بهم استسلموا عائدين إلى مزاب وهم أذلة خانعين، لأن بُعد المسافة وقلَّة الزاد والرفيق سيُجبرهم حتماً على العودة من حيث أتوا؛ وبهذا طويت صفحة المعارضين لرحلة القُطب مع زوجه إلى الحجاز، ليُكمل بذلك ركب الحُجَّاج بقية الرحلة بسلام.

لقد تلقى القُطب والركب المرافق له في كل محطة يصلون إليها كرماً حاتمياً، وحفاوة في الاستقبال والتوديع منقطعة النظير، وهو دون شك اعتراف بمكانته العلمية ومركزه الديني والاجتماعي المرموق، فحين دخل مدينة الأغواط استقبله أهلها بحفاوة كبيرة، ثم ما لبث أن التفَّت به الجموع للتحية والسلام، واغتنم بعض الحاضرين فرصة وجوده لإلقاء بعض الأسئلة والاستفسارات في حضرته، فأجابهم القُطب مستبشراً كعادته، مرتاحاً لسؤال الناس عن شؤون دينهم، وتحيّرهم على أُخراهم كحيرتهم على شؤون دُنياهُم.

أما عن اسم الأغواط فيقول القُطب: "تسمى كذلك لأنّ أرضها بعضه منخفض وبعضها الآخر عالٍ..."[51].

بعد مسيرة يوم وليلة دخل ركب القُطب مدينة الجلفة العامرة، فحضي وفده باستقبالٍ كبيرٍ من سكانها سيما منهم جموع بني ميزاب من التجار، فهم موجدون بها بكثرة منذ قديم الزمان وخاصة منهم التجَّار من بلدة العطف (تجنينت)، الذين انصهروا في المجتمع "النَّايلي" وكوَّنوا علاقات حميمة مع سكان المدينة وكذلك مع البدو الذين يقصدون محلات المزابيين بكثرة لشُهرتهم بالصدق والأمانة.

نزل القطب ومرافقوه ضيوفاً عند المدعو باحمد بن صالح السماوي[52] وقد كان أحد تلاميذه النجباء، وهو حينئذ من التجار المزابيين المرموقين بالجلفة، وقد استدعى هذا الأخير للضيافة أيضاً عنده _بمناسبة حضور القُطب_ بعض أعيان المدينة وأشرافها ومنهم أشراف عرش أولاد نايل[53] وأشراف بن لحسن[54]، وأحد الكرماء الأسخياء ويدعى بلقاسم من أولاد بلَّحرش[55] وغيرهم، وقد أمضى القُطب معهم ساعات طيبة، كما مدحهم طويلاً وذكر مناقبهم العديدة في قصيدته الحجازية.

وعن تسمية الجلفة يقول القُطب: "تسمى كذلك لأن أهلها من طبيعتهم القُلف في السخاء والكرم، والقِلف من العَيْشِ: الرغدُ الناعِمُ، ومنها سَنَةٌ قَلْفاءُ: أي مُخْصِبَةٌ وعامٌ أَقْلَفُ مُخصب كذلك..." [56].

بعد يوم أو يومين جدد الركب الرحلة إلى الشمال باتجاه مدينة المديَّة، وفي طريقه إليها ذكر الشيخ بعض ما شاهده من طبائع الأقوام المنافية للشرع الحنيف، ومنها حلق اللحية والاستطالة في الشوارب، وقد بيَّن وجه الدِّين في ذلك، وذكر ما يلزم صاحبها من أداء الكفَّارات مع التوبة والإنابة.

وغير بعيد عن مدينة المديَّة جاءه الخبر بأنَّ الأوربيين يتحدثون عن كروية الأرض ويتمارون في ذلك فحاججهم بقوله تعالى: [وَالشَّمسُ تَجرِي لِمُستَقَرٍّ لَهَا، ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم] سورة يسين، آية 38؛ وهو الدليل الواضح على كروية الأرض وعدم استقرارها، وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس.

ولمَّا دخل المديَّةَ صادف ردَّ الفرنسيين مسجداً للمسلمين كانوا قد احتلوه أو احتله أغياظ اليهود، فوقف فيه مخاطباً المسلمين ومهنِّئاً لهم على استرجاعهم له[57].

بعد مسيرة يوم وصل القطب مدينة البليدة وفيها تلقى ترحيباً جماهيرياً كبيراً من سكانها ومن التجار المزابيين بها كذلك، وقد اغتنم بعض الطلبة الفرصة للسؤال وطلب الفتوى فكان القُطب يجيبهم مستبشراً ودون تردد.

سار الأمر مع القُطب والوفد المرافق له تماماً كما عهد في كل مرحلة، فعندما دخلوا مدينة الجزائر العاصمة التي تُعرف قديماً بجزائر بني مزغنَّة، تسارعت إليه الوفود بأنواع الاحتفال ومجالس الأنس والذكر وطلب الفتوى.

وبعد أيامٍ اكترى وفدُ الحجاج سفينة إسبانية أصحابها من سكان جبل طارق، لتُقلَّهم عبر البحر المتوسط إلى الحجاز، وقد مرت السفينة بجزر صقلية وسردينيا التي تقابل تونس في البحر، كما وصفها بذلك.

وصلت السفينة التي تقلُّ وفد الحجيج إلى ميناء الإسكندرية بعد أيام قليلة، فرست هناك بعض اليوم ثم شقت طريقها باتجاه بحر القُلزم أو البحر الأحمر عبر قناة السويس، وقد وصف الشيخ أطفيَّش كيف شُقت الجبال الراسيات وصار بها معبر كبير للسفن المتنوعة.

وبعد مسيرة أيامٍ حل الركب في ميناء جدة وهم فرحين مستبشرين بوصولهم سالمين غانمين إلى أرض الحجاز، فساروا إلى البيت الحرام وكلهم شوق إلى رؤيته وتقبيل الحجر الأسود، فصادف دخولهم إليه نزول أسراب الحمام إليهم واقترابها منهم وكأنها جاءت تسلم عليهم، كما التقت بهم وفود الحجيج من مختلف الأصقاع ولاسيما الموافقون[58]، وقد كانت فرصة مواتية للتعارف والتواصل بين مختلف المشايخ والعلماء، ومن بعض ما طرح من المسائل على سبيل المثال: قضية جرِّ اليد على البيت الحرام حين الطواف به، وأول من بدأ النطق بلغة العرب، وقصة وضع التشكيل والنقط على آيات القرآن الكريم، ومسألة الإشارة إلى الحجر الأسود حين الزحام هل تُجزي عن اللمس أم لا؟ وغيرها من المسائل الفقهية المتعلقة بأداء مناسك الحج.

لقد عرف علماء مكة مكانة القُطب العلمية فتسارعوا إلى الجلوس إليه مباشرة عقب انتهاءه من أداء جميع المناسك، حتى قرّبوه إليهم وقدموه للدرس في حضرة الناس بالمسجد الحرام.

تناقش الشيخ أطفيَّش مع علماء مكة الراسخين أمثال: رحمة الله الهندي، وزيني دحلان، ومحمد حسبي الله، عديد القضايا الفقهية، فتبين له الموافقة والتقارب في أغلبها، كما

كانت فرصة للاستزادة من معارفهم وتنقيح الكثير من الأفكار، وقد تلقى القُطب وتلاميذه في كل ذلك إحساناً كبيراً من أهل مكة ومن مختلف العلماء الأعلام، وافترقوا بعد ذلك وقلوبهم متعلقة بتلك الأماكن الجليلة وعيونهم تسيل من فراق البيت الحرام.

اتجه ركب الحجاج قاصداً المدينة المنورة مروراً بجُعرانة وعُسفان، وفي هذه الأخيرة التقى القُطب ببعض الأشاعرة الذين بادروا بطرح بعض الأسئلة عليه فلم يكن من الشيخ إلاَّ أن يجيبهم بما علم في الموضوع، ومنها إلى صُفرى وبها قوم من الصفرية أو أتباع زياد بن الأصفر، ثم منها إلى عيون بدر ثم وادي حُنين فالطائف، وصولاً إلى طيبة أو المدينة المنورة.

نزل الحجاج ومعهم القطب أطفيَّش ضيوفاً على المدينة المنورة وزاروا قبر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وما كانوا ليخرجوا منها لولا موعد الرحلة، فقد تعلقت أرواحهم بها فصاروا كطامع في وصل ما انفصل، وخرجوا منها ودموعهم تسيل إلى وجهة ينبُع أو الينبوع وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر تقابل المدينة المنورة في نفس الخط بينهما مسيرة ليلة.

ركب وفد الحجاج السفينة التي أقلَّتهم من ميناء ينبُع مروراً بقناة السويس فميناء الإسكندرية نزولاً بميناء تونس الخضراء.

نزل وفد الحجاج من السفينة بأرض تونس وساروا فيها أياماً، زاروا خلالها الجامع الكبير أو جامع الزيتونة، كما انعطفوا عند بعض المزابيين المقيمين بتونس ومنهم طلاب العلم والتجار الذين فرحوا كثيرًا بلقائهم، ومن بين من ضفر بضيافة القُطب عنده إبراهيم بن عمر وهو أحد أعيان المزابيين بتونس، وقد أحسن إكرام القُطب وأنزله منازل الخلفاء، وفعل كذلك مع جماعة الطلبة الذين معه، فأحبَّ القُطب لقائه حتى إنه عندما جدد للرحلة صعب عليه كثيراً فراقه.

بعد مسيرة أيام دخل القُطب أطفيَّش مدينة بُونة وهي المعروفة اليوم بعنّابة إحدى عواصم الشرق الجزائري الساحلية، فتلقوا ترحاباً وإكراماً من الناس في كامل طريقهم، وقد نزل القُطب ضيفاً على المدعو يحي بن صالح وهو حفيد الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، وأحد أعيان بني مزاب البارزين في مدينة عنّابة، وفيها أيضاً الأجودان عيسى بن صالح وعيسى بن الحاج، وهما كذلك من تجار بني يسجن المرموقين بعنابة.

ذكر القُطب بعد ذلك أنّ الركب سار يريد الخروج من عنّابة فتلقاهم عساكر الاحتلال الفرنسي قصد تفتيشهم، ففتشوا الجميع إلا القُطب وزوجه فإنهم لم يقتربوا منهم بتاتاً، وذلك بحفظ الله ورعايته سبحانه.

بعد مسيرة أيام وصل الوفد مدينة قسنطينة، وهي إحدى عواصم البلاد الشرقية الداخلية، ومنها إلى ڤالمة فباتنة ثم جَيبُ الأمير فبسكرة، وكلها مدن داخلية في الجهة الشرقية من الجزائر، وصولاً إلى شط الجريد حيث البوابير التي تعمل على استخراج الملح وتجفيفه ونقله.

لم يفصل القُطب بعد ذلك في المراحل التي تلي هذه المرحلة، غير أنه من الممكن أن يكون قد سلك نفس طريق الذهاب أي دخل الجلفة ثم الأغواط فبريان فمزاب، أو أنه سلك طريق الجنوب أي من بسكرة باتجاه توڤرت وصولاً إلى القرارة فبريان فوادي مزاب.

دخل القُطب مدينته بني يسجن مطمئنًا وسط احتفال جماهري حاشد محتفٍ بعودة عالمهم سالمًا غانمًا، فأثنى القُطب طويلاً على كل من ساهم في إنجاح رحلته التاريخية تلك، ولاسيما يوسف بن عيسى بن صالح صاحب الهودج والبغل الذي نقل زوج الشيخ إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا.

من فوائد الرحلة:

لقد أولى السلف _رحمهم الله_ لتدوين الرحلات عناية كبيرة، فصنفوا لها وسجلوا دقائقها، ومنهم من بدل جهدًا لا يستهان به فنظم رحلته شعراً حتى تنال مكانها في عقول وقلوب السامعين، وحاول تسجيل تفاصيل الأحداث بكثير من التحري والصدق في عرض الوقائع، وتفقد أوضاع البلاد الإسلامية، تعبيراً عن تواصل المسلمين مع بعضهم، حتى وإن تباعدت الأمصار وطالت المسافات بينهم، إلاَّ أن معظمهم استطاع التواصل مع كل من تعرف عليهم في رحلته، فحدثت بينهم المراسلات الأدبية المتنوعة وتبادل الكتب وغيرها... وقد سجل لنا التاريخ بعض العلاقات التي أثمرت وصنعت أجواء مفعمة بالنشاط، ووطدت العلاقات بين العلماء فلم يكتفوا بالتواصل بينهم فقط بل نقلوا ذلك إلى طلابهم ومحبّيهم، وفتحوا مجالات جديدة من صيد العلوم بإنشائهم ما يُعرف بـ"البعثات العلمية"، فقامت بعض الأنظمة بإشارة من علمائها بفتح معاهد تقوم برعاية شؤون الطلبة الوافدين إليها للانتهال من

معين علمائها، ومن تلك البلدان التي أقام بها الطلبة الجزائريون على سبيل التمثيل مصر حيث جامع الأزهر، وتونس حيث جامع الزيتونة، والحجاز حيث الحرم المكي والمدني.

لقد مكث القُطب في مكة مجاوراً سنة كاملة، ودرَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السنوسية في عقائد المالكية"، ولو أنَّ درس هذا الكتاب وشرحه من طرف القُطب أطفيَّش لم يصل إلينا، ثم دَوَّنَ في تلك الرحلة أيضاً معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألَّف فيها إلى جانب ذلك كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"، وقد زار مصر بعدها وجلس إلى علماء الأزهر فيها وإلى الطلبة المغاربة المتمدرسين هناك من الإباضية، والذين كانوا يقيمون بوكالة الجاموس قرب مسجد ابن طولون، كما اقتنى من رحلته تلك ما استطاع من الكتب، وبعث ببعضها إلى سلطان زنجبار ليطبعها وينشرها...، فقد كان الشيخ مهتماً أشد ما يكون بنشر العلم في كل البلاد الإسلامية...، وربما نسخ أحد علماء الهند والبلاد الإسلامية المجاورة لها بعض مرويات القطب أطفيَّش أثناء مجاورته بالحجاز، وهو ما يجدر البحث عنه في خزائن المخطوطات بتلك البلدان الإسلامية.

وإنَّ من أهم ما يمكن التعليق عليه والوقوف عنده من الفوائد العديدة لرحلة القطب هو لقاؤه بالعلماء الأعلام وتدريسه الناس بالحرم المكي والمدني، والتفاف الطلبة على اختلاف مشاربهم من حوله، وذلك من أجل اقتناص الفوائد العلمية المتنوعة، ولم يكن القُطب في منهجه متعصباً لفكرة ما أو اتجاه مذهبي معيّن بل كان متفتحاً على الجميع يسمع كل الآراء ويهتم بشؤون المسلمين في كامل البلاد الإسلامية، وأكثر من ذلك فقد انبرى فاضحاً أنواع الاستعمار مبيناً للناس دسائسه وحبائله في استعباد الشعوب، ومبصِّراً في ذلك المسلمين في مختلف الأقطار التي زارها أو راسل علمائها.

ومن فوائد رحلة القطب الجليلة أيضاً إنهاؤه لمرحلة تاريخية عصيبة وتصحيحه لمفهوم خاطئ ساد ميزاب وما حولها ردحاً من الزمن، وربما بلدان إسلامية أخرى، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر إلاَّ لضرورة قُصوى كالعلاج مثلاً، أمَّا ما سوى ذلك فلا؛ متحجّجين ومتذرعين بالحجج الواهية.

نماذج من قصيدة القُطب الحجازية:

01 هَجَرنَـــا مَسَـــاقِطَ الـــرُّؤُوسِ وَمَـــا نَـــرَى سِوَى الحَجِّ إنَّ الحَجَّ[59] قَد حَانَ أَنْ يُرَى

02 وَغَيـــرَ اعتِمَـــارٍ وَالزِّيَـــارَةِ لِلنَّبِـــي عَلَيـــهِ الصَّـــلاَةُ وَالسَّـــلاَمُ زَهَـــا التَّـــرَى

03 فَلِلَّـــهِ حَمـــدٌ حَمـــدُ فَـــانٍ لِـــذِي البَقَـــا وَحَمـــدُ فَقِيـــرٍ لِلغَنـــيّ عَـــنِ الـــوَرَى

04 خَرَجنَـــا بِضَـــحوَةِ الخَمِـــيسِ بِمِثـــلِ مِـــا خَمِـــيسٍ، وَنَحـــنُ فِـــي خَـــلاَءٍ عَـــنِ المِـــرَا

05 وَفِينَـــا فَتَـــىَ الفِتيَـــانِ أَشـــجَعُ مَـــن أَرَى وَأَصـــدَقُهُم حُبًّـــا وَأَيقـــظُ مَـــن سَـــرَى[60]

06 وَأَثقَـــبُهُم ذِهنًـــا وَأَطـــوَلُهُم يَـــدًا وَمَجـــرَى أَبِيـــهِ[61] فِـــي شَـــمَائِلِهِ جَـــرَى

07 أَلاَ إِنَّـــهُ ابـــنُ السَّـــيدِ المُنتَخَـــى عُمَـــر[62] تَعَبـــدَلَ مَـــرَّتَينِ لِلخَيـــرِ مَصـــدَرَا

08 فَيَـــا لَيتَـــهُ فِـــي صُـــحبَتِي كُـــلَّ رِحلَـــةٍ إِلـــى مَكَّـــةَ الغَـــرَّاءَ فَاتِحَـــةِ القُـــرَى[63]

12 فَتَـا اللهِ، إِنَّ الحَـجَّ فَـرضٌ وَلَـو عَلَـى النِّـ ـسَاءِ ـإِن اسـتَطَعنَ ـ حَقًّـا بِـلا افتِـرَا

13 مَـعَ الـزَّوجِ أَو مَـعَ مَحـرَمٍ أَو جَمَاعَـةٍ ثِقَـاتٍ وَأَقوِيَـاءَ فِـي حَـدَثٍ عَـرَا

14 وَحَـجُّ امـرِئٍ بِـالزَّوجِ سَـبعُونَ حَجَّـةً وَوَاحِـدَةً وَالحُكـمُ مِـن أَثَـرٍ طَـرَا

15 فَقَـد جَـاءَ أَنَّ فِعـلَ ذِي الـزَّوجِ مُضَـعَّفٌ بِسَـبعِينَ وَالـدَّاعِي كَفَاعِـلٍ مَـا احتَـرَا

21 فَرَيَّـانَ هُـو اسـمٌ لِحَافِرِهَـا وَقَـد أُضِـيفَ إِلِيـهِ البِيـرُ تُطـوَى وَتُبتَـرَى

22 وَقُـل إِن تَشَـأ مَعنَـاهُ: بَـرٌّ قَـد ارتَـوَى بِوَصـفٍ وِمَوصُـوفٍ وَتَركِيبُـه اجتَـرَى

23 وَمِن بَعدِهِ الأَغوَاطُ[64]، أَغوَاطُ مَن حَضَر وَشَـرقٍ، وَقَـدمًا كَـانَ مِـن أَهلِهَـا القِـرَى

24 تُسَـمَّى لأَنَّ أَرضَـهُ بَعضُـهَا سَـفَل وَبعـضٌ عَـلاَ، وَاللهُ مَـا يَشَـا بَـرَا

87 دَنَونَـا فَـدَانَانَا الحَمَـامُ كَمَـن أَتَـى يُسَـلِّمُ وَهُـو آمِـنٌ إِثـرَ[65] اسـتَرَا

88 وَقَـد أَكثَـرَ السُـؤَالَ فـي مَكَّـةَ المُـوَا فِقُـونَ وَأَصـحَابُ المَـذَاهِبِ وَاحتَـرَا[66]

89 فَعَـن جَـرِّ بَعـضِ الطَّـائِفِينَ يَـدًا عَلَـى جِـدَارِ الحَطِـيمِ قُلـتُ: جُـورٌ بِحَـرفِ رَا

90 لأَنَّ الطَّـــوَافَ عِنـــدَ ذَاكَ بِبَعضِـــهِ عَلَـى بَعـضِ بَيـتِ اللهِ فـالفَرضُ قَـد حَـرَى

91 سِـوَى مَـا نَشَـاءُ وَقَـولِ أَربَـعِ أَذرُعٍ وَسَـبعُ ثَـلاَثٍ أَو سِـوَاهُ فَبِـالمِرَا

92 وَنَـاوِي المقَـامَ[67] قِبلَـةً لاَ صَـلاَةَ لَـهُ وَلاَ لَـبسُ ثَـوبٍ وَاصِـفٍ مِثـلَ مَـن سَـرَى

140 وَلَمَّـا اعتَرَفنَـا وَامتَنَينَـا[68] وَوَادَعُـوا مَعِـي البَيـتَ بَيـتَ رَبِّنَـا افتَرَقُـوا افتِـرَا

141 وَأَبكَـى فِـرَاقُ البَيـتِ عَينِـي وَأَحرَقَـا بِـهِ القَلـبَ إِذ وَادَعتُـهُ أَيَّمَـا احتِـرَا

213 أَقَمنَـا وَسِـرنَا وَالأَنَـامُ بِمَنظَـرٍ إِلَينَـا عَلَـى الإِحسَـانِ حَتـىَّ النُّصَـيرَى

214 بِقَسَنطِينَةَ[69] وَالأَصلُ قَسَنطِينُ وَهُو مَن بَنَاهَـا وَزِيـدَ التَّـا جَلَّتـهُ العَبَـوتَرَى

215 وَقَالَـمَةُ[70] وَأَصـلُهَا قَـلَّ مَاؤُهَـا أَو قَطَعَـت أَصـلَ العِـدَا بِـالحَبَيكَرَى

216 وَبَتنَـا[71] وَأَصـلُهُ بَقِينَـا مَبَاتَنَـا فَحُـرِّفَ وَأُكِّـدَ رَاسِـمُهَا أَيَّمَـا كَـدرَا

217 بِجَيـبِ الأَمِيـرِ الجُنـدِ: إِنَّ مَبَاتَنَـا مَبَـاتٌ بِأَمسِـنَا الَّـذِي اختَـرَم اختِـرَا

218 وَذَاكَ زَمَـانُ فَـتحِ مِصـرَ هَتَـاكَ فـي يَسَـارِ الَّـذِي يَمضِـي لِبِسـكَرَةَ اقتَـرَا

219 بِفَـتحٍ وَكَسـرِ البَـاءِ وَاللَّفـظُ مِـن كَـربِ جَرِيـدٍ يَمَـامٌ فَوقَـهُ وَالحُبَيـرَا

221 فَعَوَّضَـنِي رَبِّـي كَرِيمًـا لَـهُ أَبٌ كَـرِيمٌ وَأَجـدَادٌ كِـرَامٌ لَهَـا انـدَرَى

222 جَـوَادٌ تَـلاَهُ الجُـودُ مِـن سِـتَّةٍ وَقَـد فَـدَتـهُ نُفُـوسُ حَاسِـدِيهِ عَلَـى اعتِـرَا

223 إِذَا هَـمَّ أَمضَـى هَمَّـهُ فَيُصِـيبُ مَـا يَـرُوقُ العُقُـولَ فَهِـيَ فِيـهِ بِغَيـرَا

224 كَهَودَجِـهِ الَّـذِي عَلَـى بَغلِـهِ رَسَـا كَقَبضَـةِ جِصّ أُحكِمَت فَوقَ قَنصَرَى[72]

225 فَزَوجِـي فِيـهِ مِثلُهَـا فِـي أَرِيكَـةٍ فَلَم تَخشَ وَقصًا[73] أَو سُقُوطًا بِزَيغَرَى

226 إِلَـى أَن وَصَـلنَا بَلـدَةَ الشّـيخِ قَاسِـمٍ وَأَشـيَاعِهِ فـي الـدِّينِ فـي لَيلَـةِ البَـرَا

227 هُنَـاكَ تَلَقَّانَـا بِوَجـهٍ مُقَسَّـمٍ يُنَـوِّرُ بِـالتَّقوَى الـدُّجَى وَالغَمَيـدَرَا

228 فَمَـا لَبِتـتُ أَن شَـاهَدتُ دَارَ يُوسُـفَ بـنَ عِيسَـى بـنَ صَـالِحٍ[74] بِيَسـجَنَ ذَا

229 جَـزَى الله عِيسَـى ذَا الكِـرَامِ وَهـوَدَجٍ وَبَغـلٍ وَأَبقَـى فِـي وَلاَيِـدِهِ[75] كَـرَا

230 غِنـيً وَاعتِـزَازًا جَامِعًـا وَكَرَامَـةً وَسِـترًا وَحِفظًـا لَـيسَ يَأسَـى وَلاَ سَـرَا

231 أُولَئِـكَ أَحبَـابِي نَـأَوا فَأَصِـيدهُم بِأَشـرَاكِ أَحـلاَمٍ فَبِاليَقظَـةِ انخَـرَا

232 فَوَاهًـا وَلَكِـن تَسَـتَّرَتِ السَّـمَا فَأَطمَاعُنَـا فـي اللهِ إِذ نُـورُهُ وَرَى

تمت في 232 بيتاً

الخلاصة:

يمكن القول بأنَّ ما أثبته القُطب أطفيَّش في رحلته من ملاحظات، وما أورده من معلومات، وما وضعه من تعاليق، يتّصف بمميّزات يمكن أن تُحدّد القيمة التّاريخية والاجتماعية لهذه الرحلة، كما يمكن أن تحدد مستواه الفني والأدبي... ولعل من فوائد رحلته ما يأتي:

إنَّ أسلوب القُطب في كتابة رحلته وخاصة في نظمها شعراً على شكل مقصورة _على ما في شعره من جوازات_ يعكس رقيَّ أدبه في عصر تخلّفت فيه علوم العربية بسبب السياسات الاستعمارية البغيضة وتدني المستوى الثقافي، وهو ما ألزم معظم الرحّالة المغاربة بتدوين رحلاتهم بكثير من الألفاظ العامّية، في حين التزم القُطب أطفيَّش في نظمه قصيدته باللغة العربية الراقية، مع التفنن والإبداع فيها، لذلك فإنه يمكن اعتبار رحلة القُطب أطفيَّش من

المصادر الأساسية في التعرف على أوضاع اللغة العربية في تلك الفترة، وكذا التعرف على المسائل الفقهية المطروحة في ذلك العهد وفي مختلف الأمصار.

كما كانت الرحلة فرصة لخلق أجواء من التواصل الإنساني الهادف بين المشرق الإسلامي ومغربه، خاصة لما كانت بيد العلماء الأعلام، ومن هنا فإنه يمكن اختصار آثار رحلة القُطب في بعث التواصل بين المشرق والمغرب فيما يأتي:

1- التأريخ لتراث الجزائر خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً.
2- كتابة الرحلة الحجّية المغربية شعراً، تحدّ كبير في زمن تراجعت فيه اللغة العربية عموماً.
3- التواصل بين علماء العالم الإسلامي عند التقائهم في الحجاز ومصر وتونس وغيرها.
4- تفقد أوضاع المسلمين في كامل أقطار العالم الإسلامي.
5- عرض العلماء لجديد اجتهاداتهم، والتعرف والاعتراف بجهود بعضهم البعض.
6- استعراض أهم وقائع المسلمين في كل فترة تاريخية ومحاولة تصحيح بعضها.
7- التعرف على مختلف الجوانب الحياتية الأدبية والسياسية والاقتصادية... في مختلف الأمصار.
8- التعريف بمؤلفات العلماء وما اشتهر منها وذاع صيته في كل فترة تاريخية.
9- إيجاد أجواء من التواصل الإخواني من خلال المراسلات المختلفة وتبادل الكتب وغيرها.

هذه بعض أهم الملاحظات التي وقفت عليها من خلال قراءتي المتأنية لرحلة القُطب الحجازية، ولاشك أن هناك غيرها من الآثار الكثير، قد يتوصل المتأمل لاستخراجها والتعليق عليها بما شاء.

إنّ رحلة القُطب الحجازية قد ضربت لنا مثالاً يُحتذى في التواصل بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كما عكست جوانب فاضلة من أخلاق العلماء، ونقلت لنا صوراً حية عن طبائع المسلمين في تلك الحقبة التاريخية المهمة، وموضوع الرحلات الحجّية ما يزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحقيق.

المصادر ومراجع:

1- يحي بن بهون حاج امحمد، رحلة القطب، دراسة وتحقيق، العالمية للخدمات الطباعية، الجزائر، ط1، 2007.

[2] – ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، مخطوط، ثلاثة أجزاء، منه نسخة مصورة بدار إروان، العطف، غرداية.

[3] – معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، محمد ناصر وسلطان بن مبارك الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006.

[4] – معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط1، 1999.

[5] – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، الجزائر، 1965، ج1.

[6] – حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار البعث، قسنطينة، ط2، د.ت، ج.1

[7]– إبراهيم حفار، السلاسل الذهبية، مخ، مكتبة القطب بني يسجن.

[8] – امحمد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000، ج1.

[9] – إبراهيم بابزيز، خطبة بمناسبة مهرجان القطب 1981، رحلة القطب إلى وارجلان، أعمال المهرجان، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.

10- امحمد بن يوسف أطفيَّش، إيضاح المنطق ببلاد المشرق، مخ، مكتبة الاستقامة ببني يسجن، رقمه في الخزانة (الأولى): 18.

[11]– خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1995.

12- القُطب أطفيَّش، الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[13]– القُطب أطفيَّش، إن لم تعرف الإباضية، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[14]– القُطب أطفيَّش، كتاب تعليم الرسم، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[15]– أحمد بن حمزة الرفاعي، رسالة إلى قاضي الجماعة الإباضية بمُعسكر عمالة وهران، 3 صفحات، نسخة بحوزة الباحث.

[16]– إبراهيم بن بِحمان الثميني، مختصر المناسك ومهذب المسالك، مكتبة القُطب، بني يسجن، مخ.

[17]– لقاء مع الحافظ الحاج سليمان بكاي، قيّم مكتبة الاستقامة، ببني يسجن، بتاريخ: 2007/07/17.

[18]– لقاء مع الأستاذ المحامي: سماوي عمر بن عيسى، بمكتبه بغرداية، بتاريخ: 2007/07/15.

[19]– لقاء مع المؤرخ الأستاذ المختار اسكندر، بمنزله بحي المصلى بدينة المديّة، ديسمبر 2007.

---

[1] – آل باحمد بن عبد العزيز: من أكبر عشائر بني يسجن وأشهرها إلى اليوم وتحوي عائلات عريقة في العلم والدين، وقد رأيت دفتراً صغيراً بمكتبة الاستقامة ببني يسجن يحوي شجرة نسب هذه العشيرة.

[2] – ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 153، مخطوط.

[3] – عبد الله بن حميد السالمي (نور الدين): (1286–1332هـ) علم من أشهر علماء عُمان في العهد الحديث، له مؤلفات عديدة تعد مرجعًا في العقيدة والتوحيد منها: "مشارق الأنوار"، و"مدارج الكمال" وغيرها، لقبه القُطب بـ"نور الدين"، وقد عاش 46 سنة فقط وكأنها لبركتها مائة سنة. ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، تأليف: د.محمد صالح ناصر وسلطان بن مبارك الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص 271–273.

[4] – هكذا تذكر معظم المصادر ولا أدري بالضبط سببا غير هذا لانتقال والد القطب إلى مدينة غرداية.

[5] – البيتان لأبي العلاء المعري، ينظر: https://www.aldiwan.net/poem23561.html

[6] – ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، 1965م، ج1 ص290 وما بعدها.

[7] – إبراهيم بن يوسف: الأخ الأكبر القُطب، تلميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، وجد أبو إسحاق إبراهيم أطفيّش (ت: 1303هـ/1886م)،

ينظر بتفصيل: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ج2 ص71.

[8] – سعيد بن يوسف وينتن: من حكماء مزاب على عهده، ناصر القُطب في نهضته العلمية بعد نبوغه، (حي في: 1267هـ/1847م)،
ينظر بتفصيل: نفسه، ج3 ص387.

[9] – عمر بن سليمان نوح: من علماء بني يسجن، خلَّف بنتًا فاضلة تزوَّجها القُطب فوهبت له الخزانة التي ورثتها عن أبيها، (ت:1292هـ/1875م)، ينظر: نفسه، ج3 ص643.

[10] – سليمان بن عيسى: من علماء بني يسجن وأبطالها، تلميذ ضياء الدين الثميني، وصاحب مدرسة علمية رائدة (حي في: 1265هـ/1848م)، ينظر: نفسه، ج3 ص433 وما بعدها.

[11] – ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 153 وما بعدها، مخطوط.

[12] – خزانة الشيخ ضياء الدين الثميني هي المعروفة اليوم بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، غرداية، الجزائر.

[13] – عائشة نوح: (ت: 1357هـ/1938م) من عالمات بني يسجن، أخذت العلم عن والدها وعن زوجها القُطب الذي وهبت له خزانة أبيها، ينظر بتفصيل: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص499.

[14] – لم ينفرد بهذه الرواية إلاَّ الشيخ حمو عيسى النوري، نقلا في رواية عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، ينظر: حمو عيسى النوري، نبذة من تاريخ المزابيين، ج1 ص326.

[15] – سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص426 وما بعدها.

[16] – سعيد ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، صاحب "رسالة في تراجم علماء الجزيرة"
(ت: 1289هـ/1872م)، ينظر: نفسه، ج3 ص375.

[17] – إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. ينظر: نفسه، ج2 ص52 وما بعدها.

[18] – أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري: (1886/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "المنهاج" بمصر، له تآليف وتحقيقات لكتب عديدة، ينظر: نفسه، ج2 ص44 وما بعدها.

[19] – بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. نفسه، ج2 ص133.

[20] – صالح بن عمر لعلي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن ومزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة، ينظر: نفسه، ج3 ص475 وما بعدها.

[21] – صالح بن يحي آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات . نفسه، ج3 ص487 وما بعدها.

[22] – عمر بن حمو بكلي: (1837/1922م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو صاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. ينظر: نفسه، ج3 ص632 وما بعدها.

[23] – يحي بن صالح: (1867/1938م)، من مدينة مليكة بمزاب، وهو قاضيها المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة ولم يُنقَض له فيها أيُّ حُكم. ينظر: نفسه، ج4 ص964.

[24] – الحاج عمر بن يحي: (1858/1921م)، من أعلام القرارة ومزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتداد لمعهده الإصلاحي. ينظر: نفسه، ج3 ص654 وما بعدها.

[25] – محمد بن صالح بن يحي الثميني: (1970/1897م)، أحد أفذاذ بني يسجن ورجالها المخلصين، ومن الوطنيين البارزين، عضو اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومبعوث الحكومة المؤقتة الجزائرية إلى أمريكا والمغرب. ينظر: نفسه، ج4 ص803 وما بعدها.

[26] – إبراهيم بن بنوح مطياز: (1981/1885م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقي التابع لجمعية العلماء، وله كتاب "تاريخ وادي ميزاب". ينظر: نفسه، ج2 ص19 وما بعدها.

[27] – ينظر تيسير التفسير، ج6 ص49. والسلاسل الذهبية، إبراهيم حفار، مخ، ص41.

[28] – ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 154 وما بعدها، مخطوط.

[29] – امحمد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000، ج1، ص 86.

[30] – ينظر: إبراهيم بابزيز، كلمة ألقاها بمناسبة مهرجان القطب، حول رحلة هذا الأخير إلى وارجلان، أعمال المهرجان، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر، (محاضرة مرقونة).

[31] – عادة ما يلقّب الحاج الماكث في الحجاز بالمجاور لبيت الله ومن هؤولاء تلقب الزمخشري صاحب الكشّاف بهذا فيقال له "جار الله الزمخشري".

[32]. يوجد متن السنوسية نظمًا في بعض الكتب الحجرية، أمَّا شرحه من طرف القُطب فلم يصل إلينا بَعد..

لقاء مع الحافظ الحاج سليمان بكاي، بمكتبة الاستقامة، ببني يسجن، بتاريخ: 2007/07/17.

[33]. ويوجد هذا الكتاب مخطوطًا بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، رقمه في الخزانة (1): 18، وفي الفهرس: 212، ويقع في 239 صفحة، قياس 27×19سم، كامل، وهو بخط القُطب أطفيَّش _رحمه الله_.

[34]. أحمد بن زِيني دحلان: (1232_1304هـ/1817–1886م)، فقيه مكي مؤرخ تولى الإفتاء والتدريس بمكة، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه ومات

بالمدينة، من تصانيفه: "الفتوحات الإسلامية". ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1995، ج1، ص130.

محمد حسب الله بن سليمان المكي الشافعي: (1244_1335هـ/1828_1917م)، فقيه أصولي، من آثاره: "الرياضة البديعة في أصول الدين وبعض فروع الشريعة"، وحاشية على مناسك الحج للخطيب الشربيني. ينظر: نفسه، ج6، ص152.

رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي: (ت: 1303هـ/1888م)، نزيل الحرمين، باحث، عالم بالدين والمناظرة، جاور بمكة وتوفي بها، له كتب منها: "إظهار الحق"، جزآن، وهو من أفضل الكتب في موضوعه. ينظر: نفسه، ج3، ص18.

[35]. محمد حقي بن علي بن إبراهيم النازلي: (1301هـ/1884م)، فاضل متصوف من علماء "آيدين" توفي بمكة، له مؤلفات عديدة منها: "السنوحات المكية" و"تفهيم الإخوان تجويد القرآن". ينظر: السابق، ج6، ص108.

[36]. يعني بداية العمل بالطباعة الحجرية.

[37] – ينظر: القُطب أطفيَّش، الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طح، ص240.

[38] – ينظر: القُطب أطفيَّش، إن لم تعرف الإباضية، طح، ص10 و11.

[39] – ينظر: نفسه، ص11 و12.

[40] – ينظر: القُطب أطفيَّش، كتاب تعليم الرسم، طح، ص10 و11.

[41] – هو القُطب أطفيَّش نفسه.

[42] – من تلاميذ القُطب أطفيَّش الذين قام بتعيينهم بأمر منه في مدينة معسكر (غرب الجزائر)، وقد ترك رحلة حجازية تعرف بالتحفة البهية في الرحلة الشرقية، طبعت بمصر، سنة 1914م.

[43] – رسالة من الشيخ أحمد بن حمزة الرفاعي إلى قاضي الجماعة الإباضية في أيالة مُعسكر عمالة وهران، 3 صفحات، نسخة مصورة بحوزة الباحث.

[44]. إبراهيم بن بِحمان: (ت: 1832هـ/1817م)، عالم جليل عاصر الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، له مؤلفات عديدة ومراسلات تاريخية مهمة مع داي الجزائر حسن باشا الدُّولاتلي بخصوص قضية صالح باي. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص22.

[45]. إبراهيم بن بِحمان الثميني، مختصر المناسك ومهذب المسالك، مكتبة القُطب، بني يسجن، مخ، ص4، 5.

[46]. هي زوجة القُطب الثالثة، من عائلة فرطاس من بني يسجن، لقاء مع الحاج سليمان بكاي، 2007/07/17.

[47]. لقد مدحه القُطب كما مدح أهل قريته العطف، الأبيات من 5 إلى 10، ينظر: القصيدة الحجازية.

[48]. هَمَّ بذلك أفراد من أقاربها، ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ: 2007/07/17.

[49]. لعله من آل عشُّو من بني يسجن، ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ: 2007/07/17.

[50]. ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيَّش، البيتين 21، 22.

[51]. ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيَّش، البيت 24.

[52]. باحمد بن صالح: من آل السماوي من العطف، من تجار مدينة الجلفة المرموقين على عهده، وقد ورد على هامش النسختين (ع) و(ب): [هو جد حمو السماوي]، وهو ما أكده لي بعض آل سماوي. وهو سليل عائلة مرموقة، شارك معظم أبنائها في الثورة التحريرية المظفرة، ولا زال لبعضهم تجارة وعقارات بالجلفة ومسعد.

لقاء مع الأستاذ: سماوي عمر بن عيسى، بمكتبه بغرداية، بتاريخ: 2007/07/15.

[53]. أولاد نايل: من أكبر القبائل في الجزائر تنحدر من أصول عربية، تنسب هذه القبيلة إلى محمد بن عبد الله سيدي نايل بن الأمير إدريس بن عبد الله الكامل مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى هو عبد الله الكامل بن الحسن المتن بن الحسن السبط من ذرية الإماما علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ

[54]. أولاد بن لحسن: نسبة إلى السبط الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه، وهو عرش شهير بالجلفة إلى اليوم.

[55]. أولاد بن لحرش: من أعرق العروش في مدينة الجلفة وأشهرها، ينحدر منها آل بن شريف المعروفين.

[56]. ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيَّش، البيت 24.

[57]. هذا المسجد هو المسجد الحنفية بمدينة المدية، وهو من أعرق المساجد بها، وقد ذكر لي الباحث الشيخ المختار اسكندر بأن المسجد الحنفي كان قد اغتصب من طرف الفرنسيين ثم ردّ للمسلمين في 1886 وهي السنة التي حج فيها القُطب؛ لقاء مع المؤرخ الأستاذ المختار اسكندر، بمنزله بحي المصلى بمدينة المدية، ديسمبر 2007.

[58]. الموافقون: عبارة يرددها القُطب أطفيَّش ويقصد بها أصحاب المذاهب الإسلامية السنية وهي توافق مذهبه الإباضي.

[59] – إيذان من الشاعر بانطلاق موسم الحج، وبالتالي الرحلة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.

[60] – السَّرى: كالهُدَى: سَيْرُ عامَّةِ اللَّيْلِ. وفي قول القُطب "وأصدقهم حُبًّا.." تأكيد على ماكنة الشيخ عمر بن حمو في قلب شيخه وأستاذه، وتذكر مختلف الروايات أنه كان يناديه بـ"أمين السِرّ".

[61] – هو القائد المغوار حمو بن باحمد العطفي، آخر من تولى إمامة للدفاع بمزاب لما أراد بشوشة الزحف على ميزاب قادماً من وارجلان يريد تخريبها سنة 1871م. ينظر بتفصيل: دور المزابيين في تاريخ الجزائر، حمو عيسى النوري، دار البعث قسنطينة، ط1، 1970، ج1، ص295 وما بعدها.

[62] – ورد شرح على الهامش هذا نصه: [الحاج عمر بن حمو العطفاوي]، قلت: هو ابن الشيح حمو بن باحمد العطفي، وقد مر ذكره.

[63] – يريد كونها أم القرى كما جاء وصفها بذلك في القرآن الكريم.

[64] – الأغواط: مدينة حاضرة عامرة، تبعد عن وادي مزاب بـ 200كم إلى الشمال الشرقي.

[65] – في ن(ب): أبرَّ.

[66] – إن كثرة السائلين عن الدين من حول القُطب لدليل واضح على مكانته العلمية كما مرَّ في التقديم.

[67] – المقام: مقام إبراهيم υ، يريد أن من أراده قبلة لصلاته فلا صلاة له لأن الأصل استقبال الكعبة.

[68] – يريد: وقفنا بعرفات ودخلنا مِنًى، وهما مشعران من مناسك الحج شهيران.

[69] – قسنطينة: هي سيرتَا، من أشهر مدن الشرق الجزائري، حافلة بآثارها الإسلامية وعلمائها المرموقين.

ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية بالجزائر، ط1، 1350هـ، ص231 وما بعدها.

[70] – قالمة: مدينة ابتناها البربر والفينيقيون، شهيرة بحمَّاتها المعدنية، ينظر: نفسه، ص230.

[71] – باتنة: اسمها القديم راس العيون، وفي سنة 1849 صارت رسميا باتنة. ينظر: نفسه، ص195.

[72] – شبه مظهر الهودج على البغل، كقبضة جِصّ وهي مادة صلبة، أحكمت فوقه بشدة.

[73] – وقَصَ عُنُقَه: كَسَرها، يريد: أن زوجه لم تخش السقوط من بغلها فينكسر عنقها أو تموت..

[74] – يوسف بن عيسى بن صالح: الأرجح أنه من آل أطفيَّش. نفس اللقاء مع الحاج سليمان بكاي.

[75] – يريد: في أولاده وذريته.